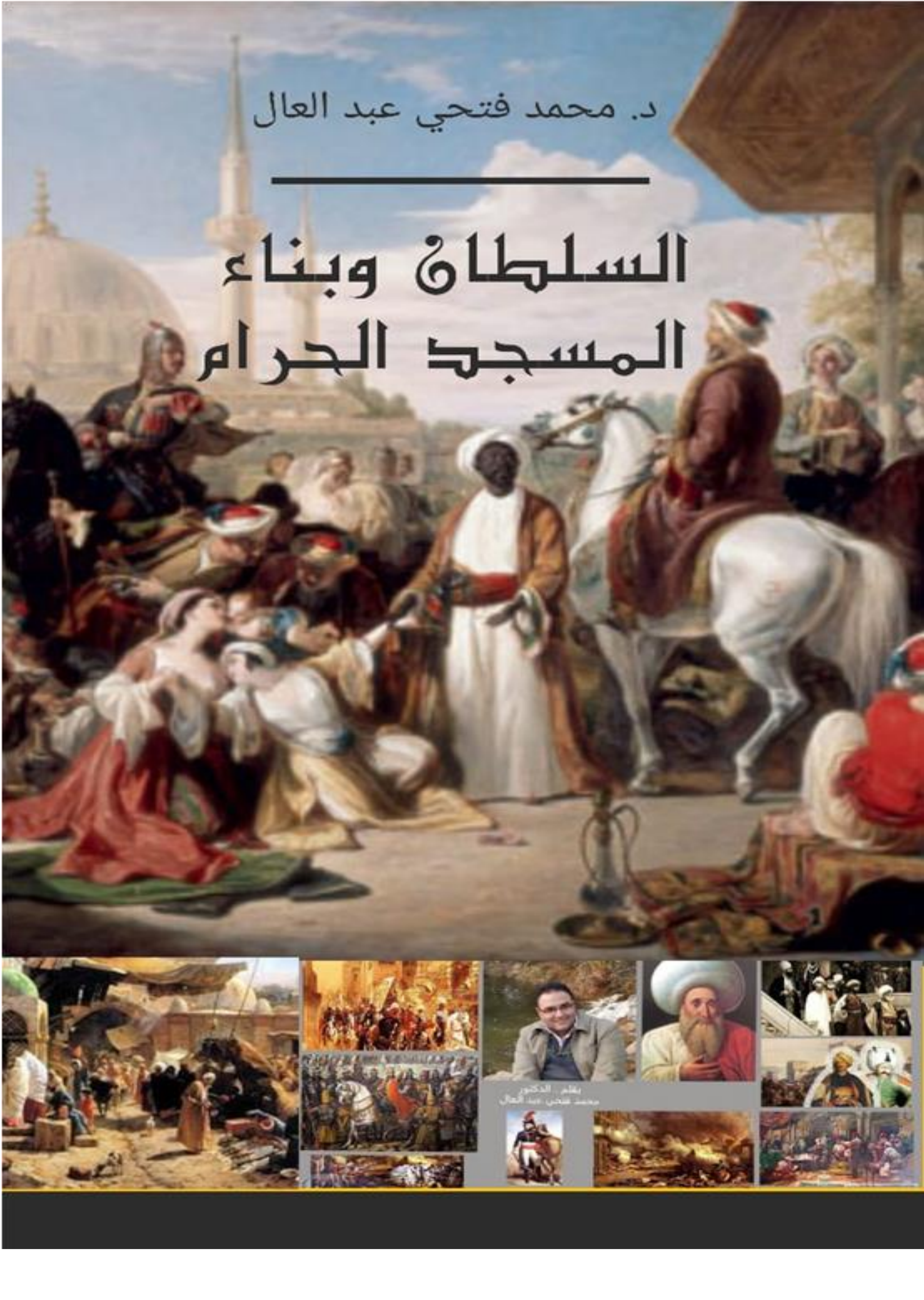

د. محمد فتحي عبد العال
السلطان وبناء
المسجد الحرام
بقلم الدكتور
محمد فتحي عبد العال

السلطان وبناء المسجد الحرام

بقلم الدكتور محمد فتحي عبد العال

المقال الاول

الغوري سلطانا علي مصر

قنصوه الغوري هو اشهر سلاطين المماليك بمصر والشام وسيرته هي انعكاس جلي لطبيعة المشاهد الدرامية العبثية التي سادت نهاية الحكم المملوكي لمصر .

ولان الحاكم المملوكي في بداياته لابد وان يدعي الزهد حتي يكسب العامة فقد بدا قنصوه الغوري زاهدا في الحكم ونزولا علي ارادة مريديه فقد قبل الحكم علي مضض!!! وسرعان ما تحول من صورة قنصوة الزاهد الي صورة الحاكم المملوكي الجشع الذي لا يتورع عن الاستيلاء علي اموال اليتامي وضمها الي ماله كما تفنن في سلب اموال التركات ....

مع ذلك كان قنصوه الغوري متحريا لرأي الشرع في كل خطوة يخطوها وفي كل قضية!! فكان يجمع العلماء الي مجلسه ليشاورهم وحينما يعرف رأي الشرع يضرب به عرض الحائط و لا ينفذ الا رأيه ..

ففي احدي المرات قفزت الي ذهن قنصوه ان يكون اول من يطبق حد الزنا بعد النبي صلي الله عليه وسلم !و فجاءة ودون سابق انذار ولسوء طالع السلطان تراجع طرفي القضية عن الاعتراف بالزنا علي الرغم من اعترافهما به في البداية وبالتالي سقط حد الرجم بحقهما وهو الحكم الذي لم يعجب السلطان فعزل قضاته الذين لا يفقهون بالدين!!!وتولي تنفيذ الامر بنفسه وبدلا من الرجم امر بربطهما في حبل واحد ووجه المرأه في وجه الرجل ثم شنقهما!!!!

وفي قضية اخري كان طرفها احد خطباء المساجد حيث تكلم في حق سيدنا ابراهيم عليه السلام بفاحش القول فتمت استابته وحكم القاضي بحقن دمه الا ان الحكم لم يعجب قنصوه فأراد ضرب عنق خطيب المسجد وفي النهاية انتهي الامر بسجن الخطيب !!!وكان للشرع موعدا اخر ولكن هذه المرة مع ادخال سلاح المدفعية الحديثة الي مصر حيث دارت مباحثات طويله بين الغوري وعلمائه حول مشروعية القتل بالنار انتهت بالاستعانه بهذا السلاح لتطوير الجيش المملوكي.

كانت عقيدة السلاطين المماليك هي غسيل اموالهم الحرام من خلال بناء المساجد والمدارس الدينية والاسبلة طمعا في الجنة !!!!ولكن السلطان الغوري كان مبدعا في هذا الميدان حيث تفنن في بناء مسجده بالمال الحرام ايضا فلم يكن بالرجل الذي يدفع مليما من ماله في بناء مسجد!! مما دعا الناس لتسمية مسجده بالمسجد الحرام !! فأنتزع ملكية مدرسة المختص كبير السقاة واستولي عليها وعلي ابنيتها وقرر استكمال بناءها لتكون مسجده وجلب المواد اللازمة لاستكمال البناء بالاستيلاء علي الرخام والاخشاب والفسيفساء من العمائر الاخري كما سخر البنائين والحرفين للعمل في بناءه دون اجر كما بني مدفنا له ...وكان افتتاح الغوري لمسجده يوما مشهودا والذي بناه بالطبع طمعا في الجنه !!!

كانت فترة حكم الغوري خمسة عشر عاما فرضت علي المصريين فيها الضرائب الباهظة وذلك لان اكتشاف طريق الرجاء الصالح حرم البلاد من رسوم التوابل والبهارات والتي كانت تمر بمصر في طريقها لاوروبا فلجأ الغوري لتعويض ذلك الفارق من جيوب المصريين كما اقترض من التجار وبالطبع لا تتوقع من سلطاننا العظيم ان يرد ما اقترضه يوما !!ومع تقدم عمر السلطان وصل العبث في الدولة الي مستوي غير مسبوق حيث صار السلطان يتكاسل عن التوقيع في المنشورات بالعلامة السلطانية فتوقفت مصالح الناس فقام الامراء ورجاء الدولة بقص توقيع السلطان علي اوراق قديمة ثم اعادة لصقها علي الاوراق الجديدة نظير مقابل مادي!!! ...

كانت نهاية قنصوه الغوري حينما هددت قوات السلطان العثماني سليم الاول حدود المملكة المصرية بالشام فخرج السلطان قنصوه الغوري علي رأس جيشه لملاقاة سليم الاول عند مرج دابق عام ١٥١٦ فأنهزم قنصوه الغوري بسبب خيانة جان بردي الغزالي وخاير بيك عامليه علي حلب وحماه واتفاقهما مع سليم الاول الذي يعتبر اول من اعتمد مبدأي الغاية تبرر الوسية وفرق تسد طول الحكم العثماني ..

استبسل قنصوه الغوري وحاول استجماع جيشه الذي دبت الفوضي في صفوفه دون جدوي حيث فر الالاف من جنده فحاول قنصوه الفرار فسقط من علي جواده لاقيا مصرعه ولم يعثر علي جثمانه وبقي مدفنه الذي اقامه بالمال الحرام خاويا علي عروشه ليكون عظة وحكمة ولكن من يتعلم ويتعظ من التاريخ !!!!..

المقال الثاني :

السلطان فرج

كانت فترة أسرة قلاوون علي مدار قرن من الزمان من أكثر فترات التاريخ المملوكي استقرارا الي أن آل الحكم الي الطفل الصالح حاجي بن علي بن شعبان أخر احفاد الناصر محمد بن قلاوون حيث قاد المملوك سيف الدين برقوق انقلابا ناعما علي الصبي وتولي السلطة في مصر مؤسسا لدولة المماليك البرجية أي الشراكسة..برقوق كان لقبا وليس اسما لهذا المملوك المؤسس وقد أطلق عليه لجحوظ بعينيه .

كان السلطان برقوق ذو نزعة صوفية جعلته يحب الفقراء ويتواضع معهم غير أنه كان مثل غيره من المماليك الذين سيطرت عليهم عاطفة الحب المثلي بالغلمان الحسان فغرقوا في الشذوذ والمجون .

قرب برقوق منه العلماء كما خفف الضرائب عن كاهل المصريين الا أن العلماء في هذه العصور كانوا من النماذج شديدة السوء فمثلا الشيخ يوسف المالطي والذي ولي قضاء الحنفية أفتي بأكل الحشيش !! وأن النظر في كتاب البخاري زندقة !!! لذلك فلا غرو أن يدير هؤلاء العلماء ظهروهم لبرقوق حينما تآمر عليه بعض الامراء المماليك ونفوه الي الكرك بل وافتوا بأهدار دمه..

في الليلة التي عزل فيها برقوق ونفي الي الكرك رزق من زوجته خوند شيرين بولد فأسماه ب(بلغاق) وتعني بالتركية الفتنة أو النحس !! تشاؤما بقدومه ..لكن مع نجاح برقوق في العودة الي الحكم مرة أخري عاد عن تسمية ابنه بالنحس واسماه فرج والحقيقة ان الاسم الذي اختاره له القدر في البداية كان الاكثر مناسبة لهذا المولود الذي لم يكن نحسا علي والده وحسب بل كان نحسا علي مصر كلها كما سوف نري فيما يلي .

حينما اقترب السلطان برقوق من النهاية اوصي بوصيتين غاية من الغرابة أولهما أن يدفن تحت اقدام مجموعة من الاولياء الصوفية طمعا في شفاعتهم له !!والوصية الثانية كانت تشكيل مجلس للوصاية علي ابنائه الثلاثة فرج وابراهيم وعبد العزيز فقد كان يتمني أن يستمر الحكم في أسرته أسوة بأسرة قلاوون السابقة عليه ..

كان أول اختبار لفرج في توطيد دعائم حكمه هو تمرد الجبهة الشامية عليه فتوجه علي رأس جيش كبير الي دمشق حيث ضرب أعناق ما يربو علي أربعة وعشرين أميرا في ليلة واحدة ثم عاد الي القاهرة ..وما أن شعر فرج أن الامر قد استتب له بالشام حتي ساورته الشكوك حول الجبهة الداخلية بمصر وكانت تنتابه الهواجس بأن مؤامرة من الامراء الشراكسة تحاك ضده غير أنه لم يكن لديه الدليل وكان وزيره القاضي ابن غراب يعزز لديه هذه الهواجس ..فلجأ فرج الي حيلة من أغرب ما نقله التاريخ فقرر الهروب من قصر السلطنه والاختباء في دار ابن

غراب ولما طالت غيبته اجتمع الامراء علي اختيار أخيه عبد العزيز خلفا له وكان صبيا هو الاخر ..

كانت عودة فرج مرة أخري برفقة ابن غراب ووسط انصاره من الامراء بمثابة الصاعقة فأعتقل الامراء الذين نصبوا أخيه كما اعتقل اخويه عبد العزيز وابراهيم وأودعهما بسجن الاسكندرية ثم أشاع موتهما بالحمي بعد ذلك !!!

أحاط فرج نفسه بشخصيات لا تقل عنه سوءا فتجد أسماء كالقاضي شمس الدين الصلتي والذي كان لديه قدرة فائقة علي التلون فقد عمل قاضيا مالكيا بدمشق ثم تحول ليكون قاضيا شافعيا بعد ذلك حسب التساهيل وحسب الاماكن الشاغرة !! ومن خاصته الامير سيف الدين بن مقبل الذي كان يقول لفرج: أنت أستاذي وأبي وربي ونبيي !!..وعرف عن فرج شرب الخمر والاستخفاف بالصلاة ومع ذلك فقد أقام مسجدا كبيرا وبه مدرسة لتدريس المذاهب الفقهية الاربعة وخانقاه فخمة واحاطها بمدينة متكاملة بأسواقها وخاناتها وحماماتها كما لم ينسي ان يخصص مدفنا له ..

السؤال لماذا حرص المماليك علي الرغم من ظلمهم علي اقامة العمائر الاسلامية والمساجد والمدارس الفخمة والاسبلة ؟!! انها علاقة فريدة ربطت بين الحكام والمحكومين في مصر فالشعب لا يعرف من الدين سوي حديث منسوب للنبي صلي الله عليه وسلم (وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ) بينما الحكام من المماليك لا يعلمون من الدين سوي حديث النبي صلي الله عليه وسلم (من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتا في الجنة)..فبقي الشعب مستأنسا طائعا وبقي المماليك في جبروتهم وظلمهم للشعب الطائع ما دام بناء المساجد هو سفينتهم الفضائية للجنة وان الهبوا ظهور رعيتهم جورا !!!..

فتجد المساجد تشيد والشعب يعتصره الجوع والمرض والاوبئة الفتاكة وحالة حاكمنا فرج لا تشذ عن هذه القاعدة فقد حدث قحط بالبلاد مصحوبا بوباء أودي بحياة ثلث سكان مصر ولم يفت ذلك في عضد فرج عن بناء بوابة عبوره الي الجنة !!!

كان فرج في حياته الخاصة لا يقل تطرفا فبعد طلاقه من خوند بنت صرق لم يغفر لها تعلقها بأمير هو ابن الطبلاوي فقتلهما دون شفقة..

في خضم هذه الصراعات وهذه الاحداث بمصر ..كانت قوات تيمورلنك المغولي تجتاح حلب ثم دمشق وتعمل السيف في أهلها دون هواده بينما تقاعس فرج عن نجدتهم وآثر السلامة ودخل في مهادنة مع تيمورلنك .قال المقريزي عن فرج بن برقوق :ان الله اقامه علي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا..

كانت نهاية فرج حينما اجتمع الامراء علي خلعه لفساده وتولية الخليفة المستعين بالله واستغلوا فرصة وجوده خارج القاهرة حيث حاصروه في قلعة دمشق وقتلوه ثم القوا بجثته خارج القلعة ..وتركت جثته دون دفن حتي رق احد الدمشقين له فدفنه صدقة وهكذا لم يشأ الله أن يدفن فرج في مسجده الحرام .

المقال الثالث :

الاشرف برسباي :

موعدنا في هذه الحلقة مع الاشرف سيف الدين برسباي والذي يمثل صورة من صور الفصام الذي عاشه سلاطين المماليك فبرسباي الذي فتح قبرص للقضاء علي هجماتهم بشكل نهائي علي موانئ الاسكندرية والشام كما تصدي لهيمنة عملة الدوكة والتي كانت تحمل نقشا بصور القديس بطرس ودوق البندقية ووصفها بنقود الكفرة المشخصة واستبدلها بعملة وطنية هي الدنانير الاشرفية كما سار علي عادة السلاطين السابقين عليه وانشيء مسجد عظيما ومدرسة ملحقة به

المشاهد السابقة تستحق ان ترفع صاحبها الي مصاف الشخصيات العظيمة في العصر المملوكي الا أن الرجل قد حمل وجها أخرا علي النقيض تماما تحمله المشاهد التاليه فلك ان تتخيل أن سلطانا يحكم دولة مترامية تضم مصر والشام وقبرص يصدر مرسوما سلطانيا لاحد اتباعه من المماليك الشراكسة وكان اقرعا بأن يكون كبيرا للقرعان وياليت الامر يتوقف عند هذا الحد فقد انطلق كبير القرعان في شوارع القاهرة مطالبا كل شخص بالكشف عن رأسه فأذا وجده اقرعا فرض عليه ضريبة !!!!!وجعل تسعيرة مختلفة لكل اقرع علي حسب ملته وعمله !!!...

كما كانت المناصب في عهد برسباي تتوارث وتشتري بالمال فأذا دفع صاحب المنصب المال للسلطان فأنه بالطبع فور توليه منصبه سيسارع في جبايته من الشعب المسكين لتعويض ما دفعه للسلطان ولكن برسباي كان الاسرع في عزله وتولية اخر وهكذا فمثلا علي بن الطبلاوي والذي كان واليا علي القاهرة في عهد السلطان المؤيد شيخ فكان يمنع الناس من دفن موتاهم الا بأذنه ومع ازدياد ظلمه عزله السلطان وضربه بالمقارع ..

دفع علي بن الطبلاوي للاشرف برسباي رشوة وقدرها الف ومائتين دينار نظير توليته ولاية القاهرة وما أن نشط الطبلاوي في جمع مبلغ الرشوة من جباية الشعب حتي عزله برسباي والوضع نفسه كان مع جلال الدين بن مزهر والذي خلف والده الحاج بن مزهر ككاتب سر للسلطان مقابل رشوة للسلطان ثم عزله بعد ذلك ...

ظهر الطاعون في عهد برسباي الميمون !!! مرتين انحصر في المرة الاولي ثم عاد في المرة الثانية اشد فتكا وضراوة وأصيب به برسباي نفسه ..

كان سؤال برسباي لعلمائه :هل يعاقب الله الناس بالطاعون بسبب ذنوبهم ؟

فأجمع الحضور :ان الزنا اذا فشا في قوم ظهر فيهم الطاعون وأن النساء يتزين ويمشين في الطرقات ليلا ونهارا وأن المصلحة منع النساء من المشي في الاسواق!!!

فأصدر برسباي من فوره قرارين ..القرار الاول بمنع النساء من الخروج من بيوتهن الي الشوارع والطرقات والثاني هو اغلاق السجون والافراج عن جميع المساجين فأنتشر اللصوص في البلاد !!! كان والي القاهرة دولات خجا صارما للحد الذي ترك فيه اللصوص وانطلق في منع النساء من الخروج !!!

فتجده مثلا يمنع امرأة مكلومة من الخروج خلف جنازة ابنها فتلقي بنفسها من أعلي منزلها وتلحق بأبنها ويصير المأتم مأتمين !!!!

كانت اغرب قرارات برسباي هو نفي الكلاب الي بر الجيزة لان اصواتها تزعجه وجعل لكل من يمسك كلبا ويسلمه نصفا من الفضة فأنطلق الشعب في جمع الكلاب وتسليمها والحصول علي المكافأة !!!..

بعد هذا الصور المؤسفة لو اردنا ان نتدبر قوله تعالي (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

لقد وصف الله عز وجل فعل الطغاة برعاياهم بالاستخفاف اي استثمار جهلهم فيما وصف القوم الذين يطيعون حكامهم الظالمين بالفسق اي الخروج عن طاعة الله

اذن فالمسؤولية عن الظلم مشتركة بين الحاكم والمحكومين ففي الحكم المطلق للحاكم دون رقيب او معارض هو مفسدة مطلقة وانصياع الشعب للظلم والمهانة تفريط مطلق في حقهم الانساني في الحرية والعدالة والعيش الكريم ..

نمضي الان مع برسباي ومحطته الاخيرة حيث ساورت برسباي الشكوك في ان طبيبيه ابن العفيف و زين الدين خضر الاسرائيلي هما المسؤولين عن مرضه

فأوسطهما والتوسيط وهو من الطرق البديعة التي ابتكرها المماليك والتي يتمني معها الانسان لو صار حيوانا حتي يقتل بطريقة اكثر شفقة !!!وخلاصته ان يعري المحكوم عليه بالاعدام من الثياب ثم يربط الي خشبتين علي شكل صليب ويطرح علي ظهر جمل، وربما يطاف به في شوارع القاهرة علي هذا الحال،وهذا هو التشهير، ثم يأتي السياف فيضرب المحكوم عليه بقوة تحت السرة، فيقسم الجسم نصفين من وسطه فتنهار امعاؤه الي الارض.

وهكذا اختتم برسباي حياته بازهاق روحين بريئين كما رأينا ليموت بعدها مباشرة ليكون قد أمضي بحكم مصر ستة عشر عاما وعدة أشهر ذاق خلالها المصريون من صنوف الهوان ما سجلناه ولم نسجله لضيق المقام ومع ذلك تجد من المؤرخين من يرفعون هذه الشخصيات الظالمة الي مصاف عظماء التاريخ الاسلامي متغاضين عن هذه المشاهد الدامية بالمقارنة بحدث جليل كفتح قبرص فأمتهان قيمة الانسان لا يمثل مشكلة لدي هؤلاء المؤرخين ..

المقال الرابع :

قايتباي

سلطاننا في هذه الحلقة من السلاطين المماليك الموصوفين بالعظمة فهو لدي مؤرخي عصره السلطان العظيم والفارس الشجاع العفيف الذي لا يزني ولا يسكر ذو النزعة الصوفية ...ديباجة تكررت مع المئات من سلاطين المماليك الظالمين .وصاحب ديباجة حلقة اليوم هوالسلطان الاشرف قايتباي

كان قايتباي مملوكا للخوجة محمود ومن هنا كان لقبه (المحمودي) وقد اشتراه الاشرف برسباي فتدرج بالمناصب حتي اصبح اتابك الجيش (القائد العام) في سلطنة الظاهر تمربغا ومع محاولة خير بك للانقضاض علي الحكم كان قايتباي الرجل القوي الاسرع في فرض سلطاته فعزل خاير بك والذي اصبح سلطانا علي مصر لليلة واحدة فقط واصبح قايتباي حاكما علي مصر لمدة ثمانية عشر عاما...

كان الصعود السريع لامراء المماليك في المناصب في مصر دافعا قويا للشباب في اسيا واوروبا الي الدخول في الاسترقاق طوعا من اجل الحضور علي مصر !!! والتي صارت قبلة للطامحين والحالمين بالحكم من شتي البقاع والشعب المصري المالك الحقيقي للارض غائبا تماما يعاني الظلم والقهر والاستبداد علي يد حكامه الاجانب من كل صوب في نفس الوقت الذي يصفهم في ادبياته بالورع والعظمة !!!!!

كان الحلم نفسه في الصعود في المناصب يراود بعض المصريين للدرجة التي جعلتهم يسيرون للرق سيرا من اجل ان يعيشوا بكرامة في بلادهم فقد استطاع عسكر المماليك ان يقتلوا داخل المصريين اي احساس بالكرامة او اي شعور بالقيمة داخل بلادهم وفي عصر قايتباي نجح أحد المصريين في السفر واوقع نفسه في الاسترقاق ليؤتي به الي مصر علي انه مملوكا تركيا عن طريق تاجر من حلب وكادت الحيلة ان تنطلي علي السلطان قايتباي الا ان تسرع المصري كشف حيلته بسرعة فبمجرد ان ترقي المصري وتم عتقه فقد أسرع يختال في بدلته العسكرية طالبا للزواج !!!

فقبض عليه السلطان واثناء تعذيبه راح يستغيث :في عرضك يا ستي نفيسه !!! فاكتشف السلطان ان مملوكه ليس تركيا بل زقاقي اي من عامة الشعب المسكين الساكن بالازقة والحواري لاستغاثته بالسيدة نفيسة كعادة عامة الشعب...هل هناك اهدارا للكرامة اكثر من سعي الحر ان يصبح عبدا حتي يعيش بشرف وعزة في وطنه؟!!!!..

نعود الي قايتباي وحكمه ..فقد كان قايتباي موهوبا في فرض الضرائب الباهظة وكانت حجته هي الاخطار المحدقة بالسلطنة المصرية وضرورة تمويل الحملات العسكرية من قوت الشعب المسكين فأشتعلت الاسعار في الاسواق وخاصة القمح ...

ويعتبر قايتباي الاب الروحي لضريبة التركات في مصر وان لم تأخذ نفس المسمي في هذا العصر فقد ضرب السلطان بقواعد الشرع عرض الحائط ونصب نفسه وريثا لكل امير مملوكي ثم قرر ان يحتض الشعب بأكمله بأعتباره ابا لكل المصريين فصار يشارك ورثة كل اسرة في مصر !!!..

وياهول جزاء من تسول له نفسه محاولة التسويف او الفرار من توريث قايتباي!!! فالامير قاسم بن جنبك والذي ماتت زوجته فأستدعاه قايتباي ومعه التركة كامله فتباطأ قاسم عن الحضور فما كان من السلطان الا ان قبض عليه وضربه بالمقارع ...ثمة مثال اخر يكشف عن انسانية سلطاننا الورع حينما همت زوجة المباشر بالبحيرة للهرب بتركة زوجها فأمر السلطان الرقيق القلب بأعتقال ابنها الصغير والوحيد وكان عمره اقل من عشر سنوات حتي تظهر امه وتدفع المعلوم !!!

كان سلطاننا المبارك قايتباي حريصا علي مجالسة الفقهاء والعلماء وقد ظهرت استفادته من هذه المجالسات في استخدامه لعقوبة قطع اليد في حد السرقة وفي غير حد السرقة!! فقد كان تلعثم موظف مهمل مثلا امام السلطان سبب كاف لقطع يده !!!!...

كما كان السلطان حريصا في تعامله مع معارضيه علي تطبيق قاعدة غريبة الاطوار منسوبة للامام مالك: ان من حق السلطان قتل ثلث الرعية لاصلاح الثلثين!! .فطبقها بحذافيرها فكان وصف معارضيه بالمفسدين في الارض جاهزا كما كان الحكم بالاعدام بأسلوب مبتكر يشهد علي عبقرية السلطان فقد كانت طريقة الاعدام هي الوخز بالرماح حتي الموت وكان قاضيه الهمام بدر الدين الاردبيلي جاهزا دوما لتنفيذ شرع السلطان ..وقد اشتهر عن هذا القاضي انكاره للبعث بعد الموت كما سبق اتهامه بحيازة النبيذ وهو ما يقربنا من صورة الكفاءات المحيطة بالسلطان الورع !!

ومن الكفاءات الاخري التي احاطت بقايتباي كان المحتسب يشبك الجمالي والذي استكبر عن مباشرة الحسبة بنفسه والنزول في الاسواق فأحالها الي اتباعه!! وتحول بالحسبة من اقامة العدل وضبط الاسعار الي فرض الاتاوات علي الناس من خلال هؤلاء الاتباع ومن يرفض دفع الاتاوه يحمل حملا الي يشبك ليتولي ضربه بنفسه حيث كان لديه طريقة مبتكرة في الضرب وهي الضرب الثلاثي !!علي المقعدة والرجلين والاكتاف وفي مرة من المرات رفض تاجر تين دفع الاتاوة فاحتملوه الي يشبك فضربه بطريقته الثلاثيه ثم طاف به في الاسواق وصلبه علي باب دكانه ولطخه عسلا ليكون طعاما للنحل والذباب !!!وليكون عبرة وعظة لمن يتجاسر علي رفض الظلم

السؤال: هل كان قايتباي لا يعلم بظلم محتسبه؟! ..بالطبع كان يعلم ولكن مسألة ظلم الرعية واهانتها وجبايتها لم يكن بالامر المستحق لنظر السلطان الذي كان يمارس من البشاعه اضعاف ما يمارسه عامله الا ان تغاضي السلطان عن محتسبه سرعان ما عصف به خلافهما في الاستيلاء علي تركة **!!!**

اتسم عصر عصر قايتباي بأن الفساد لم يكن مستترا بل واضحا للعيان ومعترفا به فالرشوة وشراء المناصب كان لهما ديوانا يسمي ديوان (البذل والبرطله)وكان هناك وسطاء وسماسرة لتسهيل المعاملات وشراء المناصب ومن اشهرهم الاميرة خوند فاطمة ابنة السلطان الظاهر ططر وزوجة السلطان برسباي حيث بوفاة زوجها دخلت في علاقات عاطفيه متعدده وتزوجت من شيخ يدعي شرف الدين التتائي انفقت عليه كل اموالها كما ساعدته في الوصول الي مناصب مرموقه ثم هجرها وتزوج عليها وقد اصبحت فقيرة فما كان من الارملة الطروب الا ان انخرطت في العمل كوسيط في الفساد الاداري للحصول علي المال الكافي لاعاشتها **!!!**

شهد عصر قايتباي ظاهرة طريفة وهي وجود عدد من السلاطين المماليك السابقين وهي ظاهرة نادرة في العصر المملوكي الذي كان يعتمد انتقال الحكم فيه علي وفاة السلطان السابق او عزله وقتله وتوليه اخر فالسلطان المعزول عثمان بن جقمق اتي قايتباي مستأذنا في الحج راكعا ومقبلا الارض تحت قدمي تابعه بالامس قايتباي الذي اهلك الارض تقبيلا تحت قدمي جقمق من قبل ولكن الايام تدور ..

بالطبع سلطاننا الورع لم ينسي نصيبه من الاخره فأسس الي جانب قلعته الشهيره بالاسكندرية مسجدا حراما لائقا بعظمة عهده الميمون بمدينة الفيوم -يحمل الجنية المصري صورته ولعلها سر حظه التعس وسط عملات العالم -كما قام بعمارة المسجد النبوي بعد تعرضه للحريق...

وتوفي قايتباي تاركا مسجده الحرام وهدية للشعب المصري لا تقل اسعادا وهي ابنه المخبول ابو السعادات واحقاقا للحق حاول قايتباي منع تولية ابنه خشية ان يلاقي الله بهذا الذنب العظيم الا ان قضاء الله قد نفذ وتولي ابو السعادات والذي كان ظاهرة لا يمكن ان تتكرر في التاريخ وللحديث بقية

المقال الخامس

ابو السعادات

عادة ما يكون لدي الطغاة هواية عالقة بنفوسهم هي التلذذ بالتعذيب والقتل وسلطاننا اليوم هو ما يمكن ان نصفه بأيقونة العصر المملوكي او الخلاصة التي يمكن أن نختتم بها اجزاء قصتنا مع هذا العهد المظلم من التاريخ المصري فقد كان يقتل ويقطع ويسلخ من المصريين من شاء وعلي مرأي ومسمع من الناس فقد كان يمارس هوايته في القتل دون هوادة وبفظاظة وقلب بارد في الطرقات مع من يلقيه حظه العاثر في طريقه ..

ان سلطاننا اليوم هو ابو السعادات او الناصر محمد بن الاشرف قايتباي ...كتيرون من مؤرخي عصره يلتمسون له العذر نظرا لنشأته المنغلقة وطبيعة والده القاسية في تنشأته فأبو السعادات الذي ولد في رحاب النيل لم ير النيل الا مرة واحدة طوال حياة أبيه وكان ذلك بوساطة الامير ازبك والذي تنسب اليه الازبكية حيث استضاف الابن وكانت المرة الاولي التي يري فيها النيل حيث كان والده الاشرف قايتباي دائم حبسه في القلعة كما كان يعاقبه دوما بالاكل مع الخدم وارتداء الثياب البالية ولا أجد سببا وجيها لهذه العلاقة المريضة بين اب وابنه .كما اني لا اجد ايضا في هذه القسوة مبررا لتحول الابن الي دراكولا عاشقا للدماء فيما بعد !!؟

كان قايتباي الاب علي فراش الموت يحاول اثناء مماليكه عن تولية ابنه ولكن دون جدوي فقد كانت مصالح مماليكه في استمرار عهده الميمون !!! علي يد ابنه المخبول فقد كان كل سلطان مملوكي يحيط نفسه بطاقم منتقي بعناية من الامراء الفاسدين يكونون طوع امره وفي هذه العصور البهية عرف المصريون قاعدة :فاسد مطيع اعرفه مقدم علي مصلح نزيه لا اعرفه ومن وقتها وعجلة الانتاج والابداع متوقفتين !!!وحينما يرحل السلطان يسارع الامراء الفاسدون الذين تربوا في كنفه الي تولية احد من اسرته حتي يستمروا في فسادهم وخشية ان يؤول الامر الي سلطان لا يعرفونه فيحاسبهم ويولي امراء فاسدين تابعين له وهكذا كانت لعبة الحكم في مصر تدور رحاها والشعب ما بين غائب ومغيب .

أخذ ابو السعادات منحي أخر في تعامله مع الامراء المماليك حوله وهو التجاهل والارتماء في احضان الغلمان الاشقياء من العامة والاوباش وممارسة هوايته في القتل وتقطيع الاجساد وكان له قدرة مبهرة علي خداع الناس وتقمص شخصيات عدة فتارة يتقمص دور بائع وتارة مراكبي وما أن تتكشف امام ضحيته حقيقة شخصيته كان ينتعش بنظرات الخوف والهلع في عيون ضحاياه ثم يحكم قبضته علي الضحية من العامة مكبلا اياه وكانت الوان العقاب شتي فأما ان تقطع اذن المسكين او يتم توسيطه بوضع الضحية علي حمار وقطعه بالسيف الي نصفين من الخصر لتتدلي احشائه ..وبالتالي أضحي لقاء ابو السعادات بأي مواطن مصري في الطريق من الحظ المشئوم لهذا المواطن المصري الذي ليس امامه من خيارات سوي التوسيط او في أهون الاحوال قطع الاذن والامر متروك لما يخطر ببال ابو السعادات من ألوان العذاب وياليت الامر

يتوقف عند الموت او قطع الاذان بل تعدي الامر مع ابو السعادات الي انتهاك اعراض الناس دون وازع من ضمير فالويل كل الويل سيدي المواطن ان يكون لك زوجة جميلة فجمال زوجة احد التجار كان سببا في اقتحام منزله من ابو السعادات وتكبيل الزوج واغتصاب زوجته والامر كذلك بالنسبة لكي عزيزتي المواطنة المصرية فعدالة الموت واستباحة الاعراض عند ابو السعادات لا تعرف التفرقة بين رجل وامرأة ولا صبي وكبير فلا تستغربين عزيزتي ان يكون جمال جارية مصرية داعيا لابو السعادات لاغتصابها رغم توسلات امها له وتقبيل الارض من تحت قدميه ان يرحم ابنتها والتي سلخ جلدها بعد اغتصابها !!!

هل غضب الشعب المصري هل ثار وعرضه ينتهك واجزاء جسده النحيل تقطع وتتناثر؟ للاسف :لا ولكن هذه المشاهد المروعة دفعت الامراء المماليك الي محاولة الانقلاب علي ابو السعادات وتولية الامير قنصوة خمسمائه مكانه وهو ما حدث بالفعل وتولي قنصوة خمسمائه حكم مصر لثلاثة ايام فقط!!!

غير ان مصالح بعض الامراء المماليك في بقاء ابو السعادات قوضت الخطة فأصيب الامير قنصوه بسهم وتفرق انصاره وعاد ابو السعادات أقوي من ذي قبل ولقب نفسه بالناصر الاشرف وأصبح ذو اللقبين !!..

ولان عهد ابو السعادات حافلا بالسعادات من جميع الوجهات فقد انتشر الطاعون وفتك بالالاف من المصريين الا ان اللافت هو انتشار الزهري مما يعكس تردي السلوكيات الجنسية في المجتمع المصري والحقيقة ان الاكثر اثارة للدهشة هو انتقال رجال الدين للكتابة في الجنس !!!! فجلال الدين السيوطي صاحب التفسير الشهير والذي لا يخلو بيت مصر من تفسيره خط في هذا العصر عشرات الكتب الجنسية في فنون الجنس و الاوضاع الجنسية وليلة الدخلة !!! ومنها كتابه الشهير : نواضر الايك في فنون .... واعتذر للقاريء عن كتابة الكلمة النابية محل النقاط وكتاب اليواقيت الثمينة في صفات السمينة وكتاب شقائق الاترنج في رقائق الغنج وكتاب رشف الزلال من السحر الحلال وغيرها ...وقد حاول الكثير من المعاصرين ابعاد شبح هذه الكتب عن السيوطي واظهاره بمظهر البطولة حيث اعتزل ظلم معاصريه من السلاطين المماليك ولا اعلم من الدين ما يرجح كفة الاعتزال والتراخي علي كفة سلوك افضل الجهاد وهو كلمة حق لدي سلطان جائر ..

لقد كان ابو السعادات ظاهرة تستحق الدراسة اشترك في صنعها شعب يطيع حاكمه حتي ولو افتقد الحد الادني من المقومات العقلية ورجال دين غرسوا في نفوس الناس طاعة الحاكم ما نطق بالشهادتين واقام الصلاة وعليك الطاعة وان ضرب ظهرك واخذ مالك !!!!

اما العدل فمنحة يمنحها الحاكم لرعيته ان شاء ويغفلها ان اراد وليست من شروط الولاية ...وحتي لا نغادر نقطة اقامة ابو السعادات للصلاة فلا يفوتنا ان نذكر قصة شديدة الطرافة لقذافي العهد المملوكي والذي شاء القدر ان يكون العيد في ليلة جمعة أي ان صلاتين سيقاما في يوم واحد هما صلاة العيد وصلاة الجمعة وهو ما يعني في ثقافة السلطان ابو السعادات نذير

شئوم !!!!!!فقرر ان يجعل العيد في يوم سابق علي يوم الجمعة ولما رفض قاضي القضاة كان العزل هو الجزاء...

ان الظلم مناهض للعلم وماذا يصنع العلم في وطن ضائع!! وحال السيوطي وغيره هو حال المثقفين في اي عصر تزهق فيه الحريات وتجتث فيه معالم الكرامة فأما ان يتحول المثقف الي معاضد للسلطة فيغير جلده الي منافق وأما ان يغير سلعته فيتحول الي مسايرة موضة عصره او يختار اصعب السبل ويواجه الظلم والجهل فيفقد حياته ولكنه في المقابل يصنع التاريخ ..تاريخ حتي وان لم يره في حينه فأنه جذوته تبقي خامدة بين سطور مؤلفاته حتي اذا استيقظ الشعب ولاحت رايات الحرية خرجت صفحاته لتنير للاحرار الطريق ..

بقي ان نتحدث عن نهاية ابو السعادات حيث اجتمع الامراء المماليك علي قتله ليكون جزاءا وفاقا لما اقترفه وعظة وعبرة لمن يعتبر ...

المقال السادس :

جامع القاتل لابنه

يقول عنه المقريزي: "فهو الجامع لمحاسن البنيان، الشاهد بفخامة أركانه، وضخامة بنيانه أن منشئه سيد ملوك الزمان، يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس وإيوان كسرى أنوشروان، ويستصغر من تأمل بديع أسطوانه الخورنق وقصر غمدان..".

بشارع الغورية يقبع جامعنا بمئذنتيه اللتين لا يعلوان المسجد وإنما فوق باب زويلة (شعار محافظة القاهرة الان) انه جامع المؤيد ...

فمن هو المؤيد؟

هو السلطان المؤيد أبو النصر شيخ بن عبد الله المحمودي الجركسي كان أحد مماليك السلطان برقوق وقد تدرج في المناصب حتى علا قدره ثم حدثت فتنة الأمير منطاش والذي أطاح ببرقوق لبعض الوقت فتم القبض على العدد من المماليك الموالين لبرقوق ومنهم مؤيد شيخ حيث اقتيد إلى خزانة شمايل أو سجن شمايل بالمصطلح العصري وهو يختلف عن السجن العصري في كونه حفرة يقيد فيها السجن ويقضي بها حاجته وحسب..

ولكن ما هو سجن شمايل الرهيب؟

هو سجن مروع بناه علم الدين شمايل أحد فلاحي بعض قرى مدينة حماة، وقد أصبح واليًا على القاهرة في عهد السلطان الكامل مكافأة له على اخلاصه ودوره في نقل رسائل السلطان إلى أهالي دمياط المحاصرين وحثهم على الصمود أثناء الحملة الصليبية الخامسة على دمياط..

نذر المؤيد :

وفي شمايل تم شكه في الزنجبير!! وهي من كلاسيكيات فن التعذيب المملوكي حيث قيد من يديه وساقيه وعنقه بسلاسل مثبتة في الحائط نهايكم عن العذاب بالحشرات من البراغيث والبق التي حفل بها هذا السجن أو الحفرة فنذر المؤيد لله نذرا إن فك الله كربه وصار له ملك مصر أن يهدم السجن ويقيم مكانه جامع كبير وتدور الايام وويتحقق حلم المؤيد شيخ بحكم مصر

المسجد الحرام :

ويفي المؤيد بنذره فهدم السجن وأقام الجامع مكانه في عجالة. كان المسجد يحتاج كميات كبيرة من الرخام فهاجم مماليك المؤيد بيوت الناس لخلع الرخام طوعا أو كرها كما أخذ باب السلطان حسن ليكون باب جامعه وكذلك النجفة النحاسية ليضيف مسجده إلى مساجد المماليك الحرام التي تبني من سرقة أموال الناس وأسرع المؤيد بافتتاح الجامع على الرغم من عدم اكتمال البناء....

قاتل ابنه :

وتمضي السنون ويتحول الضحية إلى جاني فقد نجح كاتب السر ابن بارزي في بث سمومه و تأليب المؤيد على ابنه الصارمي ابراهيم وهو الفارس الوسيم الذي وطد ملك أبيه في بلاد الشام واحبه الناس والجيش فقام المؤيد بدس السم لابنه في الحلوى وكان السم بطيئا وحينما بدأت الأعراض تظهر على الابن ندم المؤيد على فعلته وجلس بجانبه يبكيه ولكن الوقت مضى وحانت لحظة الرحيل فمات الابن وخرجت جنازته من القلعة إلى الجامع الذي انشأه المؤيد وبكي المؤيد على ابنه الراحل وهو يسمع خطيب المنبر يروي حديث النبي صلى الله عليه وسلم حينما فقد ابنه ابراهيم عليه السلام : (إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإننا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون) وحتى يخفف الاب المكلوم من لوعة حزنه على فراق ولده دس لابن بارزي من نفس السم !!

مات المؤيد حزنا في نفس السنة لقد قتل الاب ابنه حتى لا يليه في الحكم فجمعتهما الاقدار للموت في عام واحد وفي نفس القبر !!

الرضيع يحكم مصر :بوفاة المؤيد وابنه ابراهيم تطل علينا واحدة من سخريات القدر حيث اجتمع مماليك المؤيد على تولية ابنه الرضيع شهاب الدين أبو السعادات أحمد والسعادات نسبة لاسم أمه!! وفي سابقة الأولى من نوعها تولى الرضيع حكم مصر والمثير أن الطفل الرضيع أصابه الحول في حفل تنصيبه على صوت دقات الكورسات!

وصف الجامع :اشرف على بناء الجامع بهاء الدين محمد ابن البرجي ويتكون المسجد من أربع واجهات وبابه من الخشب المصفح بالنحاس والمزين بالذهب والفضة وهو باب مدرسة السلطان حسن كما سبق وأن ذكرنا ويتوسط جدار القبلة محراب مكسو بالرخام الملون وحافل بالزخارف وكان للجامع مكتبة قيمة وكان يدرس به العلوم الشرعية.... وإلى هنا ننتهي بجولتنا في واحدة من أشهر محطات الفن المملوكي وتاريخه

المقال السابع :

مسجد لا بالله

في العادة تكون المساجد صدقة لله يتحرى بانيها العفاف في كل ما يحيط بخطوات تشييدها طلبا لمرضاة الله إلا في العصور المظلمة من التاريخ والتي تشهد تفردا في غرابة سلوكياتها وحكاياتها ومنها قصتنا في هذه الحلقة... لقد كان مرور الناس باتجاه قلعة الجبل أول الرميلة تجاه شبابيك مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاون من المصادفات القدرية التعيسة في حياتهم ففي هذا المكان كان والي الحسبة ذخيرة الملك جعفر متولي الشرطة يبني مسجده مسجد الذخيرة وفي سبيل تحقيق هذا الغرض كان يترصد العمال و المارة نهارا بالطريق فيقبض عليهم ويقيدهم ويدفعهم قسرا في بناء مسجده سخرة دون مقابل فيقولون له :لا بالله ومن هنا جاءت شهرة هذا المسجد وتسميته لا بالله

ولكن من هو ذخيرة الملك باني هذا المسجد؟ ... هو جعفر بن علوان ولقبه "ذخيرة الملك" ولقد جمع بين مناصب شديدة الأهمية والحساسية وهي متولي الشرطة والنظر في الحسبة فضلا عن ولاية القاهرة في عهد الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله في عام ٥١٦ هـ فكان المنوط به بحكم مناصبه تحقيق الأمان وإقامة العدل وهو ما سار في تحقيق عكسه بالكلية!! ...

كانت هذه الفترة من الحكم الفاطمي في مصر هي فترة وهن وضعف نخر في جسد الخلافة الفاطمية اتبعه تحولا من سلطة الخليفة إلى حكم الوزراء الأقوياء حاملي السيوف من العسكر حتى صارت كل الصلاحيات رويدا رويدا في قبضة الوزراء وليس للخلفاء من الأمر الا اسمائهم..

حل ذخيرة الملك جعفر على صفحات التاريخ في هذه الغضون وحتى يناطح جعفر مولاه الخليفه فأراد أن يخلد اسمه بمسجد يفوق ابهة وشهرة مسجد مولاه الخليفة الآمر بأحكام الله والمعروف مسجده بالجامع الأقمر والحقيقة أن الخليفة في بنائه لمسجده أيضا لم يكن أكثر رحمة من عامله فقد بناه مكان دير بئر العظمة والذي كان يحوي عظام الأقباط الحواريين وكان قد نقلها القائد جوهر الصقلي لدفنها في بئر الخندق حيث كره وجود دير في منطقة القصور الفاطمية التي أقامها أنها عصور لم تعرف كرامة للبشر أحياءا كانوا أو امواتا ومن الطريف أيضا ان واجهة مسجد الأقمر حملت اسم الآمر بأحكام الله وإلى جانبه وزيره المأمون البطائحى وألقابهما وهو ما يؤكد ما وصلت إليه مكانة الوزراء في العهد الفاطمي كما أشرنا آنفا ..

نعود لذخيرة الملك وقد كان له ما أراد من بناء مسجده الحرام ولكن ماذا عن نهايته؟

يقول المقريزي أنه "إبتلى بالأمراض الخارجة عن المعتاد ومات بعد ما عجل الله له ما قدمه وتجنب الناس تشييعه والصلاة عليه، وذكر عنه في حالتي غسله وحلوله بقبره ما يعيذ الله كل مسلم من مثله"...

ومن أروع ما قيل في هذا المسجد أبيات من الشعر لم يحفظ لنا التاريخ من وضع نظمها تقول:

بنى مسجداً لله من غير حله

وكله بحمد الله غير موفق

كمُطعِمة الأيتام من كدً فرجها

لك الويل لا تزني ولا تصدقي....

ويبدو أن الويل في الأبيات لم يطل صاحب المسجد وحسب بل طال أيضا المسجد ذاته حيث حل محله مسجد الرفاعي الشهير والذي يضم رفات ملوك الأسرة العلوية في مصر والذي أمرت بتشييده خوشيار هانم والدة الخديو إسماعيل واستكمله الخديو عباس حلمي الثاني.... وهكذا لم يبقى من مسجد الذخيرة وصاحبه سوي آهات المظلومين وابيات من الشعر ولكن من يتعظ من دروس التاريخ

المقال الثامن:

مسجد المرأة الحديدية

كان للسلطان سليمان القانوني مقولة شهيرة :أن الله إذا أراد خراب دولة سلط على ملوكها النساء وكأنما هذه المقولة فصلت تفصيلا لتناسب عصر السلطان مراد الثالث ومن بعده ابنه السلطان محمد خان.

كانت السلطانة صفية سليلة أمراء أسرة بافو في البندقية زوجة للسلطان العثماني مراد الثالث وقد عاشت رحلة مثيرة بدأت باختطافها من قبل القراصنة الاتراك وهي صغيرة وحرمانها من والدها الذي كان يحكم جزيرة كورفو بالبحر المتوسط مرورا بحياة الجواري في القصور ونهاية باحتلالها مكانة كبيرة في بلاط السلطان العثماني مراد الثالث الذي تزوجها بعد أن أنجبت له ابنه محمد الثالث وأصبحت من وقتها تشارك السلطانة الوالدة نور بانو اليهودية وأسماء أخت السلطان نفوذهما في البلاط العثماني...

ولفرط نفوذ صفية لدى زوجها كانت الأوامر السلطانية تتخذ بناء على مشورتها ورغبتها وليس هناك ما هو أدل على المكانة التي وصلت إليها في بلاط زوجها من أن ملكة بريطانيا إليزابيث وهي تستنجد بالباب العالى لانقاذها من الأطماع الإسبانية التي تهدد مملكتها فقد أرسلت رسالة للسلطان وأخرى منفصلة لصفية حافلة بالتبجيل والاحترام كما قفزت العلاقات بين الباب العالى وجمهورية البندقية مسقط رأس السلطانة إلى أوج قوتها وحينما حانت ساعة الرحيل لزوجها كانت صفية قد أعدت كل شئ لضمان أن يصبح ابنها خليفة لوالده ولكن على طريقتها!!

فلسفة الدماء في البلاط العثماني:

بعد موت السلطان محمد الفاتح تنازع ولديه جم سلطان وبايزيد على العرش وكانت الغلبة لبايزيد ففر جم إلى مصر ليحتمي بسلطانها قايتباي ومن مصر انتقل إلى جزيرة رودس وهناك تحالف مع فرسان القديس يوحنا ضد أخيه مما ألهب المشاعر الدينية ضده في الدولة العلية فمنح الفقهاء السلاطين من بعدها فتوى كارثية تبيح قتل من يظن أنه يفجر صراعا حول وراثة العرش فيما عرف بقانون قتل الإخوة..

استغلت السلطانة صفية هذه الفتوى وقبل أن ينقل السلطان مراد الثالث إلى مثواه الأخير فقد سبقه إليه أبنائه الثمانية عشر!! فقد نفذت فيهم السلطانة صفية حكما دون وازع من رحمة بالموت خنقا بأوتار الأقواس الناعمة ليلا متهمة اياهم بالخيانة وكان من بينهم أطفال ورضع! ثم طلبت من ابنها محمد في الصباح أن يتوجه إلى قاعة العرش ليتلقى عزاء ابيه فوجد القاعة خالية من أخوته وحينما سأل السلطانه صفية عنهم قالت له بدم بارد أنهم سبقوا إلى المقبرة ليكونوا فى استقبال جثمان ابيهم.. بالطبع لم يعترض السلطان الجديد على فعلة والدته وهي العرف المتبع منذ عصر بايزيد وأقام لهم جنازة مهيبة ودفن أخوته في أكفان مرصعة بالأحجار

الكريمة بجانب والدهم الراحل!! كما زاد على فعلة أمه ببقر بطون ستة من جواري مراد الحوامل ووضعوهن في أجولة وألقوهن في البسفور ليقطع الطريق أمام أي منافس له في الحكم حتى ولو كان لازال في بطن أمه!!

الأمر الاكثر غرابة وفظاعة في هذا العصر وكان بترتيب أيضا بين السلطانة وابنها هو حبس بقية أمراء آل عثمان في أجنحة انفرادية سميت بالاقفاص لا يصاحبهم فيها سوى الخدم مما أسهم في تدمير نفسية أغلب آمراء آل عثمان لاحقا.

تبدل الأحوال :

تمتعت السلطانة صفية بنفوذ كبير في عهد ابنها كما كان الحال في عهد زوجها ولكن مع وفاة السلطان محمد الثالث انحصر نفوذها بشكل كبير في عهد حفيدها السلطان أحمد الأول حيث ظهرت السلطانة كوسم زوجة السلطان الجديد على الساحة ويصفها المؤرخ التركي، يلماز أوزتونا، قائلا: "كانت ذكية إلى درجة استثنائية، ماكرة ومراوغة، أستاذة في صنع خطط سياسية ومؤامرات متعددة الوجوه، مؤثرة ومقنعة في كلامها." وتمكنت في فترة وجيزة من سحب البساط من صفية وعزلها في قصرها الفخم المشيد على البسفور.

مسجد بالحيلة

أرادت السلطانة صفية أن تخلد ذكراها الملطخة بالدماء ببناء مسجد ولكن أين؟!

كان لصفية مملوك هو عثمان أغا بن عبد الله والظاهر أنه بعد عتقه قرر أن يحضر إلى مصر في أواخر أيامه ويبني بها مسجدا لكن القدر عاجله قبل أن يتم بنائه والاغاوات مجموعة من الخصيان يصادر حقهم الإنساني بكل قسوة في أن يكون لهم أسرة وأبناء حيث كان يتم شرائهم كعبيد ويلحقوا بخدمة الحرملك وحتى يكون السلطان مطمئنا على حريمه كان تجرى لهؤلاء المساكين عمليات الخصاء بقصد القضاء التام على قدرتهم الجنسية.

طمعت صفية في المسجد إذ وجدت فيه بغيتها فرفعت دعوى أمام القاضي بأن عثمان أغا لا يزال مملوكا لها وليس مأذونا ببناء مسجد كما أنها الأحق بوراثته وصدر حكم شرعي بتمكينها من المسجد فعينت عليه إسماعيل أغا والذي قام بإتمام تشييد المسجد ووضع اللوحة التأسيسية أنه من تشييد الملكة صفية تحت إشراف إسماعيل أغا وضاع حق عثمان أغا المسكين حيا وميتا!!

المسجد من قريب :

يقع مسجد السلطانه صفية بالداودية قرب شارع محمد علي وهو ثالث مسجد يقام على طراز المساجد العثمانية ذات القبة المركزية بعد جامع سليمان الخادم بالقلعة وجامع سنان ببولاق وللمسجد مئذنة أسطوانية الشكل ويزينها خطوط رأسية بارزة ويتكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة تغطيها قباب محمولة على عقود مرتكزة على أعمدة رخامية وللصحن ثلاث

أبواب أهمها الأوسط الذي يحمل فوقه لوحة تذكارية باسم والدة السلطان محمد خان وناظر الوقف إسماعيل أغا.

وكانت هذه حكاية سلطانة من العصر العثماني استحقت وبجدارة لقب المرأة الحديدية

المراجع :

١. بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس

٢. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي

٣. كتاب تأملات بن العلم والدين والحضارة د.محمد فتحي عبد العال

السيرة الذاتية

د.محمد فتحي عبد العال:

كاتب وباحث مصري

بكالوريوس صيدلة -جامعة الزقازيق٢٠٠٤

دبلوم الدراسات العليا في الميكروبيولوجي التطبيقية- جامعة الزقازيق٢٠٠٦

ماجستير في الكيمياء الحيوية- جامعة الزقازيق٢٠١٤

دبلوم إدارة الجودة الشاملة - أكاديمية السادات للعلوم الإدارية ٢٠١٥

دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الاسلامية - المعهد العالي للدراسات الإسلامية ٢٠١٦

شهادة معهد إعداد الدعاة-المركز الثقافي الإسلامي- وزارة الأوقاف ٢٠١٧

شهادة البرنامج التدريبي لأكاديمية زاد الإسلامية (أون لاين ٢٠١٩)

العديد من الكورسات والدورات التدريبية في مجال الأحصاء من أكاديمية سايلور(أون لاين٢٠١٩) ومن كلية العلوم جامعة الزقازيق والمعلوماتية الحيوية من جامعة بكين (كورسيرا أون لاين ٢٠١٩)

العديد من الكورسات والدورات التدريبية في مجال الجودة الطبية منها شهادة تخصص سلامة المرضى من جامعة جون هوبكينز (كورسيرا أون لاين٢٠١٨) ومن جامعة ستانفورد أون لاين ٢٠١٩ وشهادة تخصص في تطوير الأداء ستة سيجما الحزام الاخضر جامعة جورجيا (كورسيرا أون لاين ٢٠١٨)

العديد من الدورات في مجال الأدارة ومنها الدورة التأسيسية لاعداد القيادات التنفيذية والإدارية والنقابية –وزارة الشباب بالتعاون مع لجنة التعليم بنادي الصيادلة ونقابة صيادلة الشرقية ٢٠١٥

دورات في تدريب المدربين من مركز سيسكو ٢٠١٧ ومن مركز التنمية الثقافية والتكنولوجية بمحافظة الشرقية ٢٠١٧ و٢٠١٨ TeamSTEPPS Master Trainer

عضو باللجنة التدريبية بمجلس الإعتماد الدولي للدراسات والأبحاث الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية

الدكتوراه الفخرية من أكاديمية السلام بألمانيا ٢٠١٨

تكريم كصيدلي مثالي من نقابة صيادلة الشرقية ودرع نقابة صيادلة الشرقية٢٠١٥

تكريم كصيدلي متميز من نقابة صيادلة الشرقية والهيئة العامة للتأمين الصحي فرع الشرقية ودرع نقابة صيادلة مصر ٢٠١٦

تكريم كصيدلي مثالي من الهيئة العامة للتأمين الصحي فرع الشرقية ٢٠١٦

شهادة شكر وتقدير من مجلة مبدعون ووكالة مرآة الحياة العراقية ٢٠١٨ و من المركز العراقي للادباء والفنانين الشباب وجريدة طريق القوم بالعراق ٢٠١٩ ومن صحيفة صدي المستقبل بليبيا ٢٠١٩.

شهادة تقديرية من مبادرة الباحثون العراقيون ٢٠١٨

درع الإبداع والتميز وشهادة تقدير من مجلة امارجي الادبية العراقية ٢٠١٨

صيدلي ورئيس قسم الجودة ومدير المكتب الفني بالهيئة العامة للتأمين الصحي فرع الشرقية سابقا

صيدلي بمستشفي المواساة الدمام-الجبيل الصناعية سابقا

مدير الصيدلية الداخلية ومسؤول سلامة المرضى وإدارة المخاطر ومؤشرات الأداء بمستشفي الفلاح الدولي بالرياض سابقا

مستشار طبي بشركتيCAT و ٢٣٧ COMMUNICATIONS JLT بمصر والسعودية والامارات سابقا

كاتب وباحث ثقافي بالعديد من الصحف العربية والبوابات الالكتروبية في مجالات الطب والعلوم والتاريخ والحضارات الانسانية والدراسات الدينية ومن الصحف الورقية التي أنشر بها مقسمة حسب بلدانها :

الجزائر : صحيفة صوت الأحرار الجزائرية (صفحة اسبوعية ثابتة تحت عنوان مساحة رأي)

صحيفة الحوار الجزائرية- صحيفة الجديد الجزائرية-صحيفة الجمهورية الجزائرية – صحيفة كواليس الجزائرية.

مصر: صحيفة الأهرام –صحيفة العروبة-صحيفة الزمان-صحيفة أخبار الأدب-صحيفة الرأي

العراق: صحيفة الزوراء العراقية -مجلة أمارجي الأدبية العراقية- صحيفة النهار العراقية- صحيفة البينة العراقية الجديدة–صحيفة جدار العراقية- صحيفة الكلمة الحرة العراقية –صحيفة ثقافية كل الاخبار العراقية –مجلة مبدعون العراقية –صحيفة سيروان الكردية .

السودان :صحيفة أخر لحظة السودانية.

ليبيا:صحيفة صدي المستقبل الليبية – صحيفة فسانيا الليبية.

حول العالم:صحيفة صوت بلادي بالولايات المتحدة الأمريكية (مقال طبي شهري)- صحيفة أيام كندية (مقال ثقافي شهري).

البوابات الإلكترونية مثل : الجمهورية أون لاين- موقع الدستور الإلكتروني (امان) - موقع هافينغتون بوست الامريكي -عربي بوست-ساسة بوست -بوابتي تونس-راديو صوت بيروت الدولي -راديو صوت القلم الجزائري -فينيق-بقجة –صحيفة المثقف الإلكترونية-فوكس نيوز مصر -الراكوبة -سودانيز أون لاين –صحيفة الفكر الكردية الإلكترونية-صحيفة الحدث الإلكترونية من لندن –صحيفة الفيصل من باريس-صحيفة المنار العراقية الإلكترونية-بوابة الحضارات التابعة لمؤسسة الأهرام .